الفصل الأول:

العمل فطرة

ويخبرنا القرآن الكريم أن العمل جزء من تكوين الإنسان وفطرة فيه، ولقد حذر الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام وقال له لا تطع الشيطان لأنه سيخرجك من الجنة، من المكان الذي تعيش فيه من غير أن تبذل جهدًا في تحصيل طعامك وشرابك وفي تجنب البرد وحرارة الشمس إلى حياة تقوم على جهدك وعملك.

وهذه الإشارة القرآنية تنبهنا إلى أن العمل والكدح جزء من فطرة الإنسان السوي، وعندما أطاع آدم وزوجته – عليهما السلام –الشيطان وأكلا من الشجرة الممنوعة ظهرت لهما أعضاؤهما التناسلية، وبدأ هو وزوجته في ستر تلك الأعضاء، وكانت هذه هي البداية المبكرة جدًّا لصناعة الملابس عند الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام، ومن ثم بدأت حياة آدم وزوجته تعتمد على عملهما وعلى جهدهما، وتوارث أولادهما هذه الميزة للإنسان على الحيوان، وهي ميزة العمل لبناء الحضارة وتحقيق الخلافة.

فالعمل اليدوي – العمران – الدنيوي كما يسميه بعض الدعاة ليس شيئًا ندعو له المسلمين لتأمين حاضر الأمة ومستقبلها، بقدر ما هو جزء من تكوين الإنسان ومن صميم رسالته وجوهر فطرته، ولذلك فهذا البحث ليس دعوةً للعمل فحسب، بل هو كشف للقدوة العملية الكامنة في داخل الإنسان المسلم، والتي ترتبط بعقيدته الكلية وتُعْتَبر أساسًا من أسسها.

﴿**الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ والعمل في القرآن الكريم يُوصَف بالصلاح، وهذا الوصف يحدد طبيعة العمل العمراني الإسلامي، فهو عمل يقوم على الجهد البشرى الشريف، وهو عمل مثمر مفيد للفرد والجماعة على السواء، وهو عمل لا يسبب ضررًا للآخرين، ولا يعتمد على استغلالهم، ففي المجتمعات الرأسمالية يدور دولاب العمل على أساس استغلال

أصحاب رؤوس الأموال لجهد العمال، وإعطائهم أقل من جهدهم المبذول، وفي المجتمعات الشيوعية تتسلط الطبقة العاملة على المجتمع، وتلغي الفروق الفردية، والكفاءة العملية، وتصادر الفطرة، وتدمر بواعث الأمل، وتحفز الفرد على العمل في داخل الإنسان.

فالعمل عند غير المسلمين يقوم على إلحاق الضرر بالغير، أما العمل عند المسلمين فإن باعثه الأول: هو تحقيق خلافة الله في الأرض، وثمرته هي السعادة للفرد والجماعة من غير ضرر ولا ضرار، فوصف العمل بالصلاح ليس شيئًا تم بمحض الصدفة، ولا بضغط ضرورة لغوية، وإنما هو وصف جوهري للعمل، فالعمل الصالح عمل مفيد مثمر، لا يحمل ضررًا لصاحبه، ولا للجماعة التي يعيش فيها.

العمل البشري:

والقرآن الكريم يخبرنا أن الله تعالى ينفذ مراده في عمارة الأرض عن طريق الجهد البشري، وهذا قانون ثابت في كل القرآن الكريم، ولا يمكن تغيير هذا القانون إلا في حالات المعجزات التي تؤيد الأنبياء عليهم السلام، أو فيما يتعلق بالمسائل الكونية الكبرى التي يتولى الله سبحانه وتعالى تسخيرها للإنسان، مثل حركة الكواكب والأجرام السماوية، والرياح، والأمطار، وغير ذلك من الأشياء التي لا يقدر عليها الإنسان.

فالله تعالى ينزل الأمطار ويترك للإنسان مهمة استغلالها في الشرب، وفي الزراعة، وفي كل الأغراض الأخرى التي تهم الإنسان، فإذا تكاسل الإنسان وترك استغلال ماء الأمطار فالله تعالى لا يفعل له شيئًا بل يتركه يندثر كسائر الحيوانات المنقرضة.

١- **وفي الصراع بين المؤمنين والمشركين:** يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله (صلى الله عليه وسلم) بأن يخبر المشركين بأن انتقام الله تعالى قادم لا محالة، ولكنه سيكون بطريق مباشر من الله تعالى، أو عن طريق المؤمنين.

﴿يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا .....﴾ سورة التوبة: (٥٢)؛ أي: عذاب الله تعالى للمعاندين يأتي عن طريقين: إما أن يأتي من الله تعالى مباشرةً، أو يأتي بجهد وعرق ودم المؤمنين في ساحة القتال. وهذه الآية القرآنية المباركة لا ترفع الالتزام عن

المؤمنين في صراعهم ضد أعداء الله تعالى، بل تجعل من هذا الالتزام فرضًا واجبًا على المؤمنين، وفي كل المعارك التي ترك فيها المسلمون الاستعداد للقتال عن طريق القوة، ولجؤوا إلى الدعاء إلى الله تعالى أن ينصرهم من غير جهد مبذول منهم، خُذِلوا وهُزِموا في هذه المعارك، أما المعارك التي انتصر فيها المسلمون فهي المعارك التي أخذت من الجهد والعرق والاستعداد النصيب الأوفى، ثم اتجه المسلمون بعد ذلك إلى ربهم سبحانه وتعالى؛ فكان النصر والظفر للمسلمين والخذلان والهزيمة لأعدائهم.

٢- **وفي الحصول على الطعام:** يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ يس: (٣٥).

في هذه الآية الكريمة يرشدنا الحق سبحانه وتعالى إلى أن الطعام الذي يتناوله الإنسان يأتي إليه من مصدرين: الأول يأتي من ثمار الأشجار التي خلقها الله سبحانه وتعالى، وهيأها لطعام الإنسان. والثاني: يأتي من خلال عمل الإنسان وكدحه وسعيه في الحياة، وهذا العمل يُعْتَبر منةً من الله سبحانه وتعالى يمتن بها على الإنسان، لأن عناصر العمل تأتي من العقل السليم والجسد السليم، والفهم الجيد لطبيعة العمل المنتج المؤدي إلى خير الإنسان.

٣- **وفي الجهد المبذول في العمل:** يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ سورة الشرح: ٧.

يأمر الحق سبحانه وتعالى رسوله النبي المصطفى (ﷺ) أن يواصل جهده المبذول في العمل، فيقول له إذا فرغت من عمل فاستأنف عملًا جديدًا، ولكن التعبير بـ (فانصب) يؤكد أن الله تعالى يطلب مواصلة الأعمال المجهدة، لأن النصب: غاية الجهد والأعمال التي تُؤَدى بجهد هي الأعمال التي تقوم عليها الحضارة، وهذا التوجيه الإلهي يحبذ أن لا يكون الإنسان فارغًا أبدًا، وتعرف قيمة هذا التوجيه عند الدراسة الرأسية لسلبيات الفراغ، والدراسة الأفقية لنتائجه، فليس هناك خطرٌ أشدَّ فتكًا بالإنسان من الفراغ، ومن هنا جاء الطلب بمواصلة العمل والانتقال من العمل إلى العمل أيضًا وليس غير ذلك.

٤- يتحدث الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم عن تسخيره للكون لخدمة الإنسان:

- فالجبال (أوتادًا) لتثبيت الأرض وتثبيت الغلاف الجوي النافع للإنسان.
- والأرض جعلها (مهادًا) لسهولة حركة الإنسان عليها لتساعده سهولة الحركة على العمل المنتج.
- وجعل النوم (سباتًا) ليتمكن الإنسان من أخذ قسط من الراحة بعد عمله المجهد.
- والليل (لباسًا) للحفاظ على توازن الإنسان.
- والنهار (معاشًا) أي مهيأ للعمل الدائب من أجل تطور الحياة، أي تعملون لمعاشكم.
- وجعل السموات والأرض (سبعًا شدادًا) ليحض الإنسان على البناء والعمل، فالله تعالى يبني وهو لا يحتاج للبناء، فمن باب أولى أن يبني الإنسان لأنه في حاجة ملحة إلى البناء.
- وجعل الشمس (سراجًا وهاجًا) لكي تمد الإنسان بالضوء والدفء، والأشعة اللازمة لحمايته من الميكروبات والجراثيم وإنضاج ثماره وزروعه.
- وأنزل من السماء (من السحاب) (ماءً ثجاجًا) ماءً متدفقًا لكي يستخدمه الإنسان في ري الأرض بعد تجهيزها للزراعة.

كل هذه النعم لا يتصور عاقل أنها جاءت مصادفةً، ولكنها تُعَد على الإنسان لأنها أُعِدت له، وسوف تُحْسَب له إذا استغلها، وسوف تُحْسَب عليه إذا لم يستغلها.

الإفادة الجيدة من هذه النعم تتوقف على استغلال الإنسان لها.

ويقول الحق سبحانه وتعالى في سورة عبس (٢٤-٣٢): ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن خطوات إنتاج الطعام والغذاء للإنسان والحيوان، وقد يُسِّرت هذه الأمور للإنسان في بداية الحضارة الإنسانية، فالماء ينزل من السماء، والأرض

تنبت الخير بإذن ربها سبحانه وتعالى، ولكن كثيرًا من هذه الخطوات يشارك فيها الإنسان؛ مثل شق الأرض وبذر الحب، ورعاية الحقول والحدائق، ومع هذا فيصح نسبتها إلى الله تعالى بملكيته سبحانه وتعالى للأرض، والإنسان ينفذها بمشروعية الخلافة، ويمكن أن يُفْهَم من هذا النص بعد ذلك ما يلي:

(أ) إن الطعام كان يُنْتَج من غير جهد بشري في بداية التاريخ وعندما أراد الإنسان التنوع في غذائه بدأ في زراعة ما يريد زراعته من النباتات.

ومع هذا **فالمرحلة الأولى**: الإنتاج بفعل الله تعالى المباشر.

والمرحلة الثانية: الإنتاج بواسطة الإنسان، ليس بينهما تعارض، فالرجل يؤدي العمل بنفسه، أو يستأجر غيره لأدائه، وهو محسوب له في الحالتين، ويتضح من هذا أن العمل الدنيوي في الزراعة والصناعة ليس من قبيل الأعمال التي تعود على الإنسان بالخير في الدنيا والآخرة، مثل العبادات، ولكنه – أي العمل الدنيوي – يزيد على هذا أنه تنفيذ لمراد الله سبحانه وتعالى، وإنجاز لمشروعه في تطوير الحضارة الإنسانية.

(ب) والنص القرآني بعد ذلك يلفت نظر الكسالى المتواكلين إلى أن الطعام لا ينزل من السماء جاهزًا، ولكنه يحتاج إلى جهد في شق الأرض وبذر الحب، وتعهد الأرض بالري والخدمة حتى ينتج الزرع حبه وثماره.

وقد فعل الله تعالى ذلك للإنسان، وهو في بداية خطواته على الأرض وما زال يفعل ذلك في أي مكان على الأرض، لم تكتمل فيه خبرة الإنسان بالزراعة، وفي المكان الذي يتسلح فيه الإنسان بالعلم والخبرة، في هذا المجال يوفقه الله سبحانه وتعالى إلى إنتاج غذائه بنفسه، وإن كانت أصعب عمليات الزراعة – وهي الخلق – لا تتم إلى بقدرة الله تعالى المباشرة، ويبقى للإنسان جهده وعرقه وخلافه.

ويقول الحق سبحانه وتعالى في سورة النحل (٨): ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾. في هذه الآية يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن النعم الأولية التي يهيؤها الله تعالى للإنسان لتساعده في خلافته وبناء حضارته.

ولكن حياة الإنسان تتطور، وتزداد حاجته يومًا بعد يوم إلى الاتصال بغيره، وقد يكون هذا الغير في بلد قريب فيذهب إليه بالخيل والبغال والحمير، وقد يكون هذا الغير في بلد بعيد، وفي دولة ثانية أو قارة ثانية، عند ذلك يصبح من المستحيل عمليًّا اتصال الإنسان بالإنسان بهذه الوسائل البدائية، إلا إذا أراد الإنسان أن يضيع حياته وجهده ورسالته في الحياة، وفي رحلة واحدة، وتُرْكَب الخيل والبغال والحمير من أجل الحرب بين الشعوب.

فإذا استحدث شعب من الشعوب وسائل أخرى للحرب مثل العجلات الحربية والعربات والمدرعات والدبابات، يكون استعمال هذه الوسائل – الخيل والبغال والحمير – في الحرب من باب إلقاء النفس في التهلكة. ومن هنا جاء قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ليفتح للإنسان آفاقًا أخرى؛ يفكر فيها ويحاول أن يصل إليها حتى يصل إلى وسائل نقل تناسب تطور حياته وتقدمها.

وقد وصل أولئك الذين فهموا هذه الرسالة على وجهها الصحيح إلى احتلال الكواكب والوصول إليها بسفن الفضاء، أما الذين خاصموا الفهم الصحيح لكل شيء في الحياة، فإنهم ما زالوا يعتزون بنوقهم وجمالهم؛ حتى أن بعضهم ينقلها معه بالطائرات لكي يركبها ويشرب لبنها في البلاد التي يصل إليها لحضور بعض المناسبات، وقد تكون له حجة فيما يفعل، ومن الممكن احترام هذه الحجة في بعض الشعوب.

ولكن الحقيقة الناصعة تؤكد لنا أن هذه الأعمال من باب السير عكس تطور الحضارة الإنسانية، وهذا المسافر عكس التاريخ سيصل بعد لأي إلى واد سحيق، ويتلاشى فيه كما يتلاشى الزبد فوق صفحة الماء.

وكل وسائل النقل والحركة السريعة صنعها الإنسان، ومع هذا يقول الله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا يوضح لنا أن عمل الإنسان يُضَاف إلى الله تعالى بطريق الخلافة على اعتبار أن علم الإنسان هبة من الله تعالى، وإتقانه لعمله يقع في عين رضا الله سبحانه وتعالى.

وفي سورة النحل أيضًا (٦٨، ٦٩) يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ

مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

في هذا النص أوضح دليل على قيمة العمل الدنيوي وحتميته في تطوير الحياة، فالله تعالى يأمر النحل – أمر تكوين – أي إعدادًا للمهمة – بالعمل وبذل الجهد في بناء بيوتها فوق الجبال وفي داخل الشجر، وفي الخلايا التي يهيئها لها الإنسان، ثم يأمرها بجمع الرحيق من كل الثمرات من زهورها.

ويقول لها: ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾، وهذه السبل هي العمل، لأن النحل يقطع مسافات كبيرة لإنتاج كمية قليلة من العسل، أما تحويل غذاء النحلة في جوفها إلى عسل فيه شفاء للناس، فهذا لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى.

والله سبحانه وتعالى لا يحدثنا عن النحل من باب أنه – تعالى – يخبرنا بحاله، ولكنه بهذا الحديث يأخذ بأيدينا إلى طريق العمل طريق النجاة، ويلهم عقولنا الحكمة الخالدة في الكون، وهي أن الإنسان خُلِق للعمل، فالعبادة عمل والعمل عبادة، ولا يمكن الاستغناء بأحدهما عن الآخر.

وعندما يقف الإنسان أمام خلية للنحل ويحاول فهم ما يدور بداخلها يُصَاب بالذهول، ويدرك أن الإنسان مهما بلغ من نشاطه فهو كسول، ويدرك أن الله تعالى في توجيه الإنسان إلى دراسة نشاط النحل إنما يحفز نشاط الإنسان نفسه ويهديه إلى طريق الحياة الكريمة التي يريدها الله سبحانه وتعالى للإنسان، ويقول له لا تكن أقل من النحلة، وأنت تملك عقلًا وعلمًا وقدرةً لم تُوَفر لها، فكيف استجابت هي لفطرتها العملية ونفذت مشروع ربها فيها، وأنت لا تنفذ مشروع الله تعالى فيك مع أنك المسؤول عن المشروع العام لخلافة الله تعالى في الأرض وتطوير الحياة.

يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة النحل ٧٤ – ٧٦: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧٤﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍۖ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٧٦﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقٗا

حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾.

في الآيات الثلاثة السابقة عدة ملاحظات:

(أ) في الآية الأولى: يقول الله تعالى: يا أيها الإنسان لا تغير مهمتك التي خُلِقت لها – وهي الخلافة – وتتمثل في صور أخرى غير التي أمرتك بها لأني أعلم بما يصلحك وأنت لا تعلم، والذي يؤكد هذا الفهم لهذه الآية ما يُفْهَم من سياق الآيتين الأخيرتين.

(ب) وفي الآية الثانية: يضرب الله تعالى المثل لما يريد وما لا يريد، فالعبد المملوك لا يقدر على شيء ولا ينفع في تطوير الحياة، والقيام بواجب الطاعة والعبادة لأنه مملوك، ويرى بعض المفسرين أن العبد يكون مملوكًا بالرق، وهو أنه يعمل في خدمة غيره من بني الإنسان، ويكون ملكًا له أو مملوكًا له.

إلا أن المعاني في القرآن الكريم ليست محدودةً كما يزعم هؤلاء، ولكن المعنى القرآني يتسع حتى تجف البحار لو كانت أحبارًا تُكْتَب بها معاني القرآن الكريم، ولذلك فمعنى الملوك ينسحب على الانتماءات العصبية والفكرية وغير ذلك، فالذي يعتقد أن مهمته في الحياة هي إشباع شهوته ورغبته هو مملوك لهذا الاعتقاد وذلك المسلك.

والذي يعتقد أن مهمته في الحياة هي البقاء في المساجد، وسعيه في الحياة هو الطواف على مساجد الأولياء لزيارتها، دون أن يكون له فاعلية في الحياة بما يعود بالنفع عليه وعلى أسرته وعلى أمته، فهذا الإنسان مملوك لما يعتقد وهكذا، فالمملوكية منهج حياة، وهذا المنهاج من الأمثال التي لا يحب الله تعالى أن يراها على صفحة الحياة، وهو ينهانا عن ضرب هذه الأمثال، أي إقامتها شاخصةً في الحياة لأنها لا تخدم دينًا ولا دنيا على السواء.

ثم يأتي الله تعالى بالمثل الذي يريده شاخصًا في الدنيا لإقامة الخلافة، وتطوير الحياة، وهو ذلك الإنسان الذي يعبد ويعمل ويكدح ويعرق؛ حتى يتسع رزقه جزاء عمله المنتج، ثم يخرج من هذا الرزق حق الله تعالى لإخوانه من أصحاب الأعذار مثل الفقراء والمساكين والمرضى واليتامى وكل مستحقي الزكاة من أصنافها الثمانية. هذا الإنسان نفع نفسه وغيره وجاء مثله مضروبًا من الله تعالى لا مضروبًا له؛ لأن المثل يوافق مهمة الإنسان وفطرة الإنسان وسر وجوده في الحياة.

وفي نهاية الآية الأولى: يأتي السؤال الخالد: هل يستوون؟ لا؛ فشتان ما بين القاعد الكسول الخامل، وبين العامل الكادح المنتج الذي يحصل المال، وينفق بعضه أو كله في سبيل الله تعالى لتطوير حياة أمته والرقي بها حتى تصل إلى مكانها اللائق بها.

ثم يقول الحق تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ نعم الحمد لله، لأن التفرقة بين الكسول والمتوسل وبين العامل المنتج تُعْتَبر نعمةً من الله – تعالى – يجب حمده عليها. أما إظهار الكسول في صورة الولي الملهم صاحب العلم اللدني فأغلب الظن أن ذلك من وسوسة الشياطين الذين يتربصون بمستقبل هذه الأمة وكل أمة أسلمت وجهها لله تعالى قبل ذلك، حتى يضيعوا الفائدة من خلق الإنسان ويدمروا خلافته لله تعالى في الأرض.

ويقول ربنا في نهاية الآية: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. نعم؛ فأكثر الناس تلتبس عليهم الأمور في فهم العبادة: هل هي تقديس لله تعالى وإعمار للأرض؟ أم هي تقديس فقط حتى نقترب من الملائكة وتتلاشى مهمة الإنسان؟

(ج) في الآية الثالثة: الأبكم الذي لا يقدر على شيء وليست له فاعلية في الحياة وهو عبء على صاحبه حتى وإن كان خادمًا له، فإذا أرسله في مهمة فلا بد أن يقيم على رأسه رجلًا آخر، حتى يوجهه لما يصنع.

وفي هذا يلفت القرآن الكريم نظرنا إلى تعلم اكتساب القدرة على اتخاذ القرار وتعليم ذلك للآخرين، لأن هذا الشخص الذي لا يعمل عقله، ولا يفكر فيما يستقبل من الأمور يحقق كثيرًا من ألوان الخسارة لصاحبه، لأنه يحتاج إلى من يقوم بتوجيهه في كل خطوة يخطوها، فلو أرسله صاحبه إلى السوق لشراء شيء وأعطاه المال اللازم، وحدد له السلعة المطلوب شراؤها، فإنه يذهب ويشتري أردأ أشكالها، وربما أعطى المال لأي لص سأله إياه، وربما واجهته مشكلة لم تبين له قبل رحيله إلى السوق، وكل هذه الأمور لا يستطيع أن يفكر فيها، ولذلك لا يحقق أي نوع من الكسب لصاحبه.

ويقول الله تعالى: يصف منهجه: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ وفي هذه الآية كثير من العتاب للذين لا يفكرون ولا يبتكرون ولا يبدعون؛ لأن القرآن الكريم يجعل هذا الإبداع والفكر

من نشاط الإنسان الأساسي، ويصف من يتركه بأنه من الصم والبكم، ويحدد منهاجه في الحياة: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾.

ثم يقول ربنا وهو يفاضل – عن علم – بين الأبكم والمفكر الذي يخطط للمستقبل: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، لا يستوي الأبكم والمفكر الذي يأمر بالعدل مع الاستقامة، لأن الأمر بالعدل يستلزم قوةً في الفكر تستحضر ما ينفع الناس في حاضرهم ومستقبلهم، ومن يملك هذه الناصية يكون نافعًا لأمته بشرط أن يكون على صراط مستقيم في حياته وسلوكه وفكره.

يقول الله تعالى في سورة الشرح: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾: ٧، يرى كثير من العلماء أن معنى الآية الكريمة: أنه يجب على الإنسان إذا فرغ من عمل أن يبدأ في عمل آخر، لأن حياة الإنسان محسوبة ومحددة، ولا يرضى له الحق سبحانه وتعالى أن يقعد ويتكاسل عن العمل وهو مخلوق له من البداية، والعمل هنا يشمل كل الأعمال التي يقوم بها الإنسان من أعمال العبادات وأعمال تطوير الحياة؛ فكلها عمل، وكلها إذا ضُبِطت بشريعة الإسلام ترضي الله سبحانه وتعالى.

هذا وما قدمناه في هذا الفصل عن فكرة العمل الدنيوي في القرآن الكريم يُعْتَبر إشارةً صغيرةً في هذا الاتجاه، وتبقى كنوز القرآن حافلةً بالخير وكأنها لم تُمَس، ولعل الله سبحانه وتعالى يعين كل باحث يحاول أن يربط الدين بالحياة، ويكشف له عن أسرار العزة والقوة في القرآن الكريم.